تعليق على :

« فائدة الأربعاء ! »

للأستاذ على الطنطاوى

هذه كلمة صغيرة من باب ما نشره الأستاذ المدنى فى « فائدة الأربعاء » ، وما أفتى فيها ذلك (العالم الكبير) الذى أولع — غفر الله له — بتبرير كل ما تفعل العامة ، والاستدلال عليه ، والدفاع عنه ، ولو كان خطأ محضاً ، ولو كان ظاهراً فيه الخروج على مبدأ التوحيد الذى جاء به الإسلام نقياً واضحاً ، دأبه فى ذلك دأب زميله الشيخ يوسف النبهانى رحمه الله رحمة واسعة ، فإنه كان على علمه وأدبه يذب عن عقائد العامة ، ويسخر للدفاع عنها قلمه البليغ ، ويناضل عنها ويهجو العلماء المصلحين بالقصائد الطوال ، حتى إنه تطاول على علامة العصر السيد رشيد رضا ، وعلى شيخه مربى الجيل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنهما

وسبب ذلك كله ابتغاء الحظوة عند العامة ، والرغبة فى نيل احترامها وتقديرها ، وإلا فكيف يخفى على مثل الشيخ يوسف النبهانى والشيخ يوسف الدجوى ، وهما هما فى سعة العلم ، وبلاغة القلم ، وحدة الخاطر ، أن الذى يدعو إليه السلفيون من لدن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ جمال القاسمى — أن الذى يدعون إليه إنما هو الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات ، وطرح الأحكام الاجتهادية التى لم يرد فيها نص ولم يبق إليها من حاجة ، وليس على شيء من ذلك رد ، ولا للجدال فيه مجال ؟

وكيف يخفى على عالم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمنعه ما كان يقاسى من آلام المرض الذى قبض فيه من أن يبيّن أن الله لعن قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد — وأن المسلمين أمسوا اليوم ، وما مسجد من مساجدهم إلا وفيه قبر أو أقيم على قبر ، وأكثر هذه القبور لم تصح نسبته إلى صاحبه . هذا مسجد دمشق الكبير ، من يستطيع أن يثبت أن القبر الذى فيه هو قبر سيدنا يحيى عليه السلام ، وقبر سيدنا الحسين فى القاهرة من يثبت أنه فيه مع أن رأسه فى المشهد المعروف باسمه فى مسجد دمشق وجسده فى كربلاء ؟ وكيف يكون فى بيروت مقام سيدنا يحيى وليس فى هذا المقام قبر ولا شبهه ؟ ولكنهم كرهوا أن يكونوا بمنجاة من مخالفة الحديث ، فأقاموا هذا المقام على غير شيء ... وما الفرق بين وجود القبر وعدمه ونحن نعتقد أنه لا يضر ولا ينفع ؟ وكيف يخفى على عالم أن فى الحديث الصحيح الذى رواه على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره ألاّ يدع صنماً إلا كسره ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّاه بالأرض ؟ فما بالهم أحرص الناس على تشييد القبور وتعظيمها والوقوف بأعتابها ؟ وهل يفعلون ذلك إلا استرضاء للعامة وابتغاء الحظوة عندها ؟ فأين إذن أمانة العلم وكرامة العالم ، وأين إرث الرسول ؟

وأغرب من ذلك وأبعده عن الحق أن من العلماء من يستدل على الخرافة بأحاديث لا أصل لها إرضاء للعامة . حدث من أسابيع أن قدم دمشق عالم تركى من علماء اسكندرون ، فدخل المسجد فرأى حلقة نبيلة يجلس فيها ، وكان المدرس من علماء دمشق المدودين الذين يقررون بين العشاءين ، فسمعه يقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم يخرج كل ليلة من قبره بلحمه ودمه فيدور دورة فى الأرض يرى فيها كل شيء ثم يعود إلى قبره . فقال له الشيخ التركى : من أين جئت بهذا ؟ فأظهر المدرس الغضب وصرخ : ألمثلى يقال من أين ؟ إذا شئت أن تتعلم فتعال إلىّ فى دارى أعلمك . فجاءه فى داره ، فبحث ونقب ثم أتاه بحديث ليس له سند معروف . فقال له: هذا حديث موضوع ، فقال المدرس : لا بل هو صحيح ، وصرفه من داره . فلما كان الغد دخل الشيخ التركى المسجد ومعه طائفة من الكتب المعتبرة التى تنص على أنه حديث موضوع ، فكان جواب الشيخ أن صرخ : نحن ما عندنا وهابية ... نحن ما عندنا وهابية ... نحن من أحباء الرسول . وكرر ذلك حتى جمع عليه العامة فكادوا يبطشون به

وأشد غرابة من هذه القصة ما أسمعه كل جمعة على كثير من منابر دمشق ، من التصريح بأن النبى صلى الله عليه وسلم حىّ فى قبره . وما أدرى كيف يكون حياً فى قبره والحىّ عندنا هو الذى يأكل ويشرب ويتنفس ؟ فهل هو صلى الله عليه وسلم حىّ فى قبره بهذا المعنى ؟ وإذا كان حياً فكيف نعتقد أنه مات سنة كذا ، وكيف قام من بعده أبو بكر وعمر ومئات الخلفاء ؟ وإذا

ثبت أنه قد عاش كما يعيش الناس ومات كما يموتون فكيف يكون حياً فى قبره إلا أن تكون حياة روحية برزخية لا نفهم ما هى ؟ ولا ندرك صلتها بحياتنا الأرضية ؟

أما إنه لا بد من تصحيح عقيدة المسلمين بالنبى صلى الله عليه وسلم . والصحيح أنه ليس بشراً كسائر البشر أو فيلسوفاً أو مصلحاً فحسب ، كما يريد أن يصوره بعض المستشرقين وأذيالهم من اللاحدة الذين تخرجوا على أيديهم فجاءوا منكرين للوحى ، لا يرون فرقاً بين النبى وبين العلماء المصلحين ، ويزعمون أن الإسلام إنما خرج من رأس محمد وقلبه

وليس فوق البشر ، كما يتصوره بعض المسلمين القائلين بخرافة حياته فى قبره ، وعلمه بكل شىء ، وقدرته بعد موته على النفع والضرر

ولكنه بشر مثلنا بنص القرآن ، وإنما يمتاز بالعصمة وبالوحى ، وبقيامه بالتبليغ عن الله ، وقد انقطع الوحى والتبليغ بموته ، فمن ادعى أنه رآه صلى الله عليه وسلم فى نومه فأمره بكذا أو نهاه عن كذا ، يكون إما مجنوناً أو معتقداً نقص الشريعة ، أو متلاعباً بالدين ... ومن حسب أنه يمدحه بمثل قوله :

يا أكرم الرسل مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فهو على ضلال ، لأنه يمدحه بما يهدم التوحيد من أساسه . وإذا كان كفار قريش الذين سماهم الله مشركين وأوجب قتالهم ، يدعون الله مخلصين إذا ركبوا فى الفلك ، ورأوا الشدة ، فماذا يكون هذا الرجل الذى يحيق به الحادث العمم فلا يجد من يلوذ به إلا الرسول ؟ وينسى الله ؟ ونحن نعلم أن النفى والاستثناء من طرق القصر ولذلك كانت كلمة التوحيد لا إله إلا الله ؟

وماذا نقول للعلماء الذين يفهمون هذا الأمر الواضح ، ثم يقرؤون هذا البيت ويتواجدون عند سماعه لأن العامة تعتقد به وتقدسه ؟

وماذا نقول للعلماء الذين يحضرون الموالد وأشباهها فيسمعون المغنى يتغزل بالرسول ، ويذكر الوصال ، أى والله ، والبين والفم وهاتيك الوقفات ، ويسكتون خوفاً من العامة ؟

والذين يجلسون فى حفلات الرقص التى تسمى ذكراً ، ولا ينكرونها وهم يعرفون بطلانها خوفاً من العامة ؟

* * *

يا سادتنا العلماء الأعلام ، إننا لا نحتاج إلى علم ، فإن عندكم منه ما يزيد على الحاجة ، ولكنا نحتاج (ولا مؤاخذة) إلى إخلاص وإلى جرأة ، وإلى تحرر من التعبد لجماهير الناس ، وتخلص من الخضوع للعامة ، فإذا وصلتم إلى ذلك لم تختلف ولم نتجادل ، لأن المسألة ترد إلى الدليل وأنتم أعرف به منا

إننا نشكو أموراً كثيرة ، وأنتم تعرفون دواءها ولكنكم تخافون العامة . . .

منها العقيدة بالقبور ، وسؤال أهلها ، والتوجه إليها ، وهى عقيدة لا يعرفها الإسلام ، بل يعرفها اليونان الأقدمون ويسمونها عبادة الأبطال . ومن شاء فليرجع إلى كتاب تاريخ الحضارة لشارل سينوبوس الذى عربه أستاذنا كرد على بك وليقابل بين العقيدتين وليقل لى : أما هما من جنس واحد ؟

ومنها مسألة السفور ، هذه المسألة الاجتماعية الخطرة ، التى تعد من الأدواء المضلة ، والعلماء واقفون منها شر موقف ، وبيان ذلك أن النساء يمشين نحو السفور بل الحسور والتهتك والعلماء ساكتون لا يعالجون المسألة ولا يحسنون علاجها ، فإن تصدى لها مصلح فأحب أن يجد لها دواء ، كالسفور الشرعى المحتشم مثلاً — أثاروا عليه العامة ، وخطبوا به على المنابر ، واتهموه بأنه سفورى مفسد ، فإذا كف عن بحثه الإصلاحى عادوا إلى نومهم وتركوا حبل التهتك على غاربه ... فلا هم يصلحون ولا هم يتركون الناس يصلحون ، وأظنهم لا يفكرون فى الإصلاح تفكيراً جدياً ، وإنما يبتغون الحظوة عند العامة

ومنها مسألة الطرق الصوفية وما فيها من منكرات

ومنها خرافات المتصوفة وضلالاتهم كالقول بوحدة الوجود ، والتطبانية ، وأهل الديوان

ومنها مسألة المذاهب الفقهية والاجتهاد ، والكلام فيها يحتاج إلى فصل بل إلى فصول طوال

ومنها الرد على الشبه التى يوردها المستشرقون وأمثالهم

فمن لهذه المسائل إلا أنتم يا سادتنا العلماء ؟ من يعالجها ؟ من يدرسها ؟ وكيف تدرسونها وأنتم تحرصون على رضا العامة أكثر من حرصكم على الحقيقة ؟

هذه هى المسألة يأيها الأستاذ المدنى ، ليست محصورة فى فائدة الأربعاء ولا فائدة الخميس ! فسل إخوانك علماء الأزهر ما هو جوابهم عليها وقل لى ، ولك الشكر وعليك السلام .

على الطنطاوى